سؤال العمل الإيجابي عند بديع الزمان النورسي
(من العقل القاصر إلى القلب المفتوح)

بن خميس سرحان : أستاذ محـاضر أ
كلية العلوم الإسلامية جامعة باتنة1

تاريخ إرسال مقال:23 -03-2018 **تاريخ قبول المقال:**05 -05-2018

ملخص

كثيرا ما تكتسب الأشياء أهميتها عندما نشعر بأننا سنفقدها، فتحتدم في مشاعرنا الرغبة في استبقائها، خوفا عليها، أو خوفا على أنفسنا لأنها سلاحنا الوحيد الذي يدرأ عنا الأخطار. والعمل الإيجابي، هذا المفهوم الأصيل في رسائل النور، يبدو في وضع قريب من الاحتمالات المثارة هنا، وهذا ما استدعى السؤال عن العمل الإيجابي من منظور رسائل النور، والذي يحتمل معنيين اثنين: أحدهما السؤال عن حقيقة العمل الإيجابي، كما إذا قيل:" ما العمل الإيجابي؟" والثاني، السؤال عن طريقة العمل الإيجابي كما إذا قيل:"كيف هو العمل الإيجابي؟"، ولكن العلم بماهية العمل لا يراد لذاته، وإنما يراد لغاية أهم؛ وهي بالذات، العلم بكيفية توظيف هذه الماهية، فهل هذا ما قصده الإمام النورسي بالعمل الإيجابي؟

وإذا كانت الإستراتيجية العملية للإمام النورسي أن لا يتوجه إلى المسائل عقلاً بل قلباً، لأن الفكر لا يتنور من دون ضياء القلب كما قال، فإنما يرنو من خلال هذه الإستراتيجية إلى تهيئة الأديم الأمثل، لزرع التصورات وبذر النظرات وحمل الناس على الاعتقاد فيها والإيمان بها، حقائق ساطعة ومقاصد واضحة، ولا يروم الإمام النورسي إعدام العقل باعتباره كفاءة تجريدية منطقية، بل ينوي توسيع مجاله ومد مساحة نفوذه لاعتقاد لديه أن الحقائق الإلهية تتجاوز الحس المجسم لتتصل بكون آخر من طبيعة متعالية لا يرى العقل القاصر إلا طرفا منها، فهل تنبعث الحقائق من قبر القلب عارية مجردة بسر المسائل؟

وهل إن العمل الإيجابي هو إمكانات قلبية لا حواجز عقلية عند الإمام النورسي؟ وما العلاقة بين تلك الثلاثية عنده؟
الكلمات المفتاحية: العمل الإيجابي، العقل القاصر، القلب المفتوح.

Abstract

most of things get their importance once we know that we will lose them soon. So, we hurry to keep them close due to our fear of losing them or ourselves as they are our only weapon to push back all threats. Thus, positive work in An Nour Letters seems to be too close from what expressed earlier. Therefore, what can be said about this concept? What is a positive work? And how does it work? But investigating the nature of work is not for its sake, but rather for the knowledge about the use of this nature. So, does this what Nursi has meant by the positive work?

In his practical strategy, Nursi does not treat issues or situations mentally, but rather heartily; as thought does not illuminate unless the heart is shined as per Nursi. In this respect, following this way will set the ground ready for planting mental visions, opinions, and pushing auditors to accept this strategy as a matter of fact and final aims. Through this action Nursi does not mean to ignore the role of mind as a logical efficiency. This is due to his belief that divine truths bypass all what is tangible and connect with a transcendent world. So, he tends in here to expand the mind scope.

For this, we wonder if we can get facts out of the heart. Whether the positive work is heartfelt possibilities not mindful boundaries as per Nursi? And what is the relation that bonds the three issues?
Keywords: positive work, limited mind, open heart

مقدمة

لا يخفى على أحد أنه لا إيجابية للذات من دون الاستناد إلى عمل مؤسس، كما لا يخفى أن العمل لا يكون بغير وجود محيط اجتماعي وفكري يكتنف تلك الذات. ولئن أشبع سؤال العمل في الفترة المعاصرة، بحثا وتدبرا من لدن علماء من مختلف التخصصات، سواء أكان ذلك في المجال التداولي العربي أو الغربي، فاختلفت أو اتفقت مقارباتهم وتباينت أو تماثلت نتائجهم، فإن الشق القيمي منه بقي مادة من دون درس، على أساس أن الأصل هو الربح من دون قيد أو التوسع من دون شرط، كيف لا ونحن نعيش في ظل حضارة زاحفة بفلسفاتها ومناهجها، لا تؤمن إلا بالمجرد من الفكر، أو الظالم من القول، أو الإجراء من العمل.

وهذه السلبية التي صنعتها بعض الكتابات، جعلت ذلك السؤال عن العمل الإيجابي مادة أرشيفية منقبية، والحال أنها في عميق مقصدها وفي دقيق مغزاها، ذاكرة القلب ودليل حياته، وهذا المنتهى التأسيسي الذي صادرنا عليه، هو الذي رفع عنا الحرج وجوز لنا الانشغال بسؤال العمل، من خلال مشروع بديع الزمان النورسي، بناءً على مواقف تأويلية مبنية على ثلاثية (العمل الإيجابي/ العقل/ القلب).

إشكالية البحث

باعتبار أن العلاقة بين هذه العناصر الثلاثة تمثل إشكالية حقيقية حاول بديع الزمان النورسي حلها، ومحاولته تلك كانت مع ظهور النزعات اللاأدرية والشكية والعدمية والفوضوية؛ إذ لا معرفة ولا طريقة، بل لا عقل فيها، فهل إذا كان العلم بماهية العمل لا يراد لذاته، وإنما يراد لغاية أهم؛ وهي بالذات، العلم بكيفية توظيف هذه الماهية، كان هذا قصد الإمام النورسي من العمل الإيجابي؟

وهل إذا كانت الإستراتيجية العملية للإمام النورسي أن لا يتوجه إلى المسائل عقلاً بل قلباً، لأن الفكر لا يتنور من دون ضياءالقلب، فإنما يرنو من خلال هذه الإستراتيجية توسيع مجال العقل ومد مساحة نفوذه لاعتقاد لديه أن الحقائق الإلهية تتجاوز الحس المجسم لتتصل بكون آخر من طبيعة متعالية لا يرى العقل القاصر إلا طرفا منها، وهل تنبعث الحقائق من قبر القلب عارية مجردة بسر المسائل؟ هل إن العمل الإيجابي هو إمكانات قلبية لا حواجز عقلية عند الإمام النورسي؟ وما العلاقة بين تلك الثلاثية عنده؟

وهل بحث الإمام النورسي الكمال في الإنسان؟ وما علاقته بالغيب، وهل يكون ذلك من خلال جدل صاعد، أو جدل نازل؟

فهذا الواقع الذي صنعته تلك الأسئلة، قوى هاجسنا وصير المدخل المنطقي في مراجعة ثم مجاوزة بعض الأشكال العملية، من خلال طرح سؤال العمل الإيجابي عند بديع الزمان النورسي، بما ينقل الأمة من قصور العقل إلى انفتاح القلب.

أما **أهداف هذا البحث** فتبرز من خلال الربط بين البحث والآفاق التي يعد بها، والدوائر التي يتحرك فيها، مجتهدا في فهم العلائق القائمة بين (العمل الإيجابي/ العقل/ القلب)، محاولا تجسير المسافات الفاصلة بين الثالوث سالف الذكر، مستعرضا لذلك أهم القضايا المترتبة على الجمع بين أطراف هذه البنية عند بديع الزمان النورسي.

أما **المنهج المتبع في البحث** فهو المنهج الاستقرائي بآلية التحليل؛ استقرائي لرصد ما كتبه النورسي حول الموضوع، وتحليلي لتفكيك تلك الكتابات إلى عناصرها الجزئية لاستبيان ملامح المساءلة من خلالها.

هذا ما يحاول البحث عرضه وتحقيقه من خلال منهجه، وبالقدر الذي تسمح به المساحة المتاحة من خلال مبحثين متكاملين.

المبحث الأول: سؤال العمل الإيجابي عند النورسي بحث في الأسس العملية

المطلب الأول: توسيع دوائر الإدراك

لقد بنى النورسي تصوره على ضرورة توسيع ملكات الإنسان الإدراكية، حتى يقدر على آداء عمله على أكمل وجه، ومن هذا المنطلق عدت المدارك الحسية، مدارك قاصرة على بلوغ تلك المآرب، إن لم تستعمل في سبيل الله تعالى؛ فإن بيع العقل إلى الله، وأُستُعمل في سبيله ولأجله، فانه يكون مفتاحاً رائعاً بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية فأينما ينظر صاحبه وكيفما يفكر يرى الحكمة الإلهية في كل شئ، وكل موجود، وكل حادثة، ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشدٍ رباني يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة[1].

والعين حاسة، تطل الروح منها على هذا العالم، فان لم تستعملها في سبيل الله، واستعملتها لأجل النفس والهوى، فإنها بمشاهدتها بعض المناظر الجميلة المؤقتة الزائلة تصبح في درك الخادمة والسمسارة الدنيئة لإثارة شهوات النفس والهوى. ولكن إن بعتها إلى خالقها البصير واستعملتها فيما يرضيه، عندئذٍ تكون العين مطالعة لكتاب الكون الكبير هذا وقارئة له، ومشاهِدة لمعجزات الصنعة الربانية في الوجود، وكأنها نحلة بين أزاهير الرحمة الإلهية في بستان الأرض، فتقطّر من شَهْد العبرة والمعرفة والمحبة نور الشهادة إلى القلب المؤمن.

وإن لم تبع حاسة الذوق التي في اللسان إلى فاطرها الحكيم، واستعملتها لأجل المعدة والنفس، فحينئذٍ تهوي إلى درك بوّاب معمل المعدة واصطبلها، فتهبط قيمتها، ولكن إن بعتَها إلى الرزاق الكريم، فإنها ترقى إلى درجة ناظر ماهر لخزائن الرحمة الإلهية، ومفتش شاكر لمطابخ القدرة الصمدانية.

فيا أيها العقل! أفق، أين الآلة المشؤومة من مفتاح كنوز الكائنات[2]؟

لذلك تجلى هذا التصور التوسيعي في رسائل النور عندما انطلق الأستاذ النورسي من عتبة ظاهرية مجالها الوقوف على الأشكال المرسومة والمضامين

الظاهرة، ثم بعدها يلج الأعماق الإشارية التي تكشف قصور المداخل التطهيرية التي لا تعدو أن تكون سوى وقوف على الأجسام اللفظية وما تحيل إليه من معان معجمية بحثا عن دراسة تروم الوقوف على المعنى سطحا وعمقا.

فالإمام النورسي لا يحد العقل بالكفاءات التجريدية المنطقية، وإنما بالكفاءات التقويمية العملية التي تقتضي مد العقل بمبادئ إدراكية تمتح من ضياء القلب، وما على القلب إلا القيام بعمله، ولا شك أن أعظم وسيلة لعمل القلب وتشغيله، هو التوجه إلى الحقائق الإيمانية بالإقبال على ذكر الله، ضمن مراتب الولاية عبر سبيل الطريقة[3]، لأن غاية هذه الأخيرة وهدفها معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها بالسير والسلوك الروحاني في ظل المعراج الأحمدي وتحت رايته، بخطوات القلب وصولا إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود[4]، فكأن ترجمة الحقائق الأصلية لا تؤديها المرويات الموروثة ولا العقول الموصوفة بالحدود والضوابط، بل مأتى ذلك حدوس تختبر وحقائق تعتصر من رحيق القلب الكاشف، الذي يلوّح بالطريقة.

فلما كان الإنسان خلاصة جامعة لهذا الكون، فإن قلبه بمثابة خريطة معنوية لآلاف العوالم، وعقله بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، وفاطر ذلك القلب قد أراد تشغيله وتحريكه والكشف عن قدراته والانتقال به من طور القوة إلى طور الفعل[5].

وقد عمل الإمام النورسي على توسيع الأنظمة العلامية الموروثة، وذلك من خلال صناعة فوائض دلالية، يلبسها بألفاظ القرآن الكريم، فخرجت تلك العلامات على قواعدها، وحملت آفاقا رمزية تخصب المعنى وتثريه، وهذا الأمر جعل دلالة اللفظ القرآني متحررة من الضبط والواحدية في النظر، أجبر القارئ على مجاوزة المعنى الظاهري إلى الباطن المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون.

ومثال ذلك ما ذكره عن الحروف المقطعة، حيث قال:" إن الحروف المقطعة الموجودة في أوائل السور، شفرات إلهية يعطي بها سبحانه بعض الإشارات الغيبية إلى عبده الخاص، ومفتاح تلك الشفرة، لدى ذلك العبد الخاص، ولدى ورثته[6].

هذا العمل التحريري للعلامات القرآنية، يتضمن مقصدا مُهما قائما على استبدال نظام معرفي أغْرته معقولية العلامات، بنظام معرفي آخر قائم على الخيال الخلاق، بعيدا عن طروحات الجابري وعقل البيان والعرفان والبرهان، أو طروحات طه عبد الرحمن وعقل التجريد ومعاقلة التسديد أو التأييد.

فعندما تنطلق المعاني من القلب تنفذ في الخيال مجردةً من الصور، وتكتسي الأشكال والصور هناك. والخيال هو الذي ينسج دائماً ولأسباب معينة، نوعاً من

الصور، ويعرض ما يهتم به من الصور على الطريق، فأيما معنىً يرد فالخيال إما يُلبسه ذلك النسيج أو يعلقه عليه أو يلطخه به، أو يستره به[7].

وقد قضى هذا التصور أن توسع الدوائر الإدراكية، توسيعا يرفع منازلها، ويضمن لها إدراك الحقائق الكلية التي تضمنتها الحروف القرآنية، فالإقرار بقصور الآلة العقلية لا يعني نفيها أو التنقيص من قيمتها، بقدر ما يعني تتميمها وإكمالها، وهي حالة الشيء الذي له انشغال بالعقل من حيث إرادة تكميله بطور إدراكي يعلوه فيما لا يصل إليه العقل أو لا يقدر عليه، غير أن المتفحص لهذه النظرة يرى فيها تقييدا مانعا من الحركة النافعة للمقيد به، إلا أن الإمام النورسي يرى أن هذا المتفحص قد وقع في الخطأ؛ إذ إن المقيد قد يكون مؤذيا فيُكف أذاه بالقيد، بل إن وجه الاستعمال الذي اشتهر به لفظ القيد هو أنه نافع في درأ آفة الهوى، فمثلاً: العقل عضو وآلة، إن لم تبعه - يا أخي - لله ولم تستعمله في سبيله، بل جعلته في سبيل الهوى والنفس، فإنه يتحول إلى عضو مشؤوم مزعج وعاجز، إذ يحمّلك آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذٍ إلى درك آلة ضارة مشؤومة، ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السكر إنقاذا لنفسه من إزعاجات عقله[8].

وما نفهمه من كلام الإمام النورسي أن للتعقل الإنساني نبوته من خلال كمال الإنسان، أي نبوءة العقل، التي بمقدورها اكتشاف علاقة الإنسان بالطبيعة، وفق منطق علمي استقرائي يحاول البحث في الظاهرة الطبيعية وعلاقتها بالوجود الإنساني، ولكن إن ترك هذا التعقل من دون تقييد مقاصدي وعملي فإنه في الغالب يتسيب ويضيق الأفق على نفسه وعلى غيره، ومن ثمة كان ذلك التأسيس العقلي منبنيا على طور إدراكي يفوق طوره.

المطلب الثاني: نفعية المقصد ونجاعة الوسيلة

لن تتحقق إيجابية العمل من منظور رسائل النور، ما لم تقترن بنفعية المقصد ونجاعة الوسيلة المؤدية لذلك المقصد؛ حيث لا تنفك المقاصد عن وسائلها من جهة النفعية والنجاعة، وأبرز مثال على هذه الدعوى أن المقاصد والغايات الربانية التي ذكرها القرآن الكريم، إنما تدور على الأقطاب الأربعة: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة[9]، حيث لا تنفك هذه الرباعية عن بعضها، كما لا تنفك وسائلها عنها، ولا يشكك في هذا إلا مكابر.

فإذا أصّلنا المسألة في رسائل النور من خلال مقاصد القرآن، كان لنا أن نبرهن على علاقة العمل الإيجابي بمقصده وبوسيلته من منظور الإمام النورسي؛ ففي درسه

الأخير الذي ألقاه على طلبته قبل وفاته رحمه الله تعالى قال:" إلا أنني قابلت المعاملات الشائنة بحقي منذ ثلاثين سنة الأخيرة بالرضى والقبول، ذلك من أجل السعي للعمل الإيجابي والاجتناب عن السعي للعمل السلبي لأجل ألا أتدخل بما هو موكول أمره إلى الله..."[10].

فمقصد عمله له توجهان: ابتعاد عن السلبية من جهة، وعدم تدخل بما هو موكول أمره للباري عز وجل، فهل في هذين التوجهين المقصديين نفعية؟ وهل لوسيلتي الرضى والصبر الجميل نجاعة أوصلته لتلك المقاصد؟ لا يحتاج المرء كثير من التفكير ليجد الإجابة، كيف لا وقد كان نور الإمام هو نور القرآن الكريم الهادي إلى سواء السبيل، كيف لا وقد كان قدوة الإمام النورسي، محمد صلى الله وعليه وسلم وأصحابه الكرام.

والملاحظ عن مقاصد الإمام من عمله أنها تتداخل وتتكاثر لتحقق النفعية، أو إن شئت قل إن مقاصد عمل الإمام إنما هي دوائر مقاصدية، فيها ما فيها من التكامل والتداخل، حيث لا دخل لحظ النفس فيها، ولا سبيل للهدم معها، لأن الدائرة المركزية لتلك المقاصد هي دائرة الجهاد المعنوي، وإقامة السد أمام التخريبات المعنوية، وكذا إعانة الأمن الداخلي[11].

ومن أمثلة ذلك التداخل المقاصدي، الذي به تتحقق النفعية، أن أعظم شرط من شروط الجهاد المعنوي هو عدم التدخل بالوظيفة الإلهية، بمعنى أن الوظيفة هي الخدمة فحسب، لأن النتائج تعود للمولى عز وجل، والتدخل فيما هو راجع أمره إلى الله تعالى، لا يحقق النفعية في شيء، إنما هو لغو ولهو لا منفعة فيه.

فإذا التفتنا إلى الوسائل، وجدنا الإمام حريصا على نجاعتها، فلا يعمل الإمام بالقواعد إذا كانت مطية للحرام، وهكذا فالأعمال النابعة من سوء الاختيار والميول غير المشروعة لا تكون عذرا لجعل الحرام حلالا[12].

فكان هذا حال الإمام مع السياسة التي خاض غمارها ما يقارب العشر سنوات، ووصل إلى نتيجة خطورة هذه الوسيلة، لأن أغلبها خداع وأكاذيب على حد قوله، سواء أكان المرء موافقا لسياسة الدولة أو معارضا لها، فحري به ترك الحيلة، والسياسة حيل[13].

وكان هذا حال الإمام مع تصادم الأفكار ومناقشة الآراء وتخالف العقول، فهي وسيلة للوصول إلى مقصد الاختلاف الإيجابي البناء الذي يسعى فيه كل واحد ترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلا[14].

أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع مردود أصلا في نظر الحديث، حيث يعجز المتنازعون والمختلفون عن القيام بأي عمل إيجابي بناء[15].

المبحث الثاني :سؤال الكمال في العمل الإيجابي عند النورسي

المطلب الأول: من الإنسان المتشظي إلى الإنسان الكامل

لقد عمد الإمام النورسي وهو يحلل الآيات المتعلقة بالأسماء الحسنى إلى رسم معالم إنسان جديد تتجاوز ملامحه، ملامح إنسان البيان وإنسان العرفان، من جهة كونهما يحدان الإنسان حدا قطاعيا، ويسمانه وسما جزئيا، يعلو فيه شأن ملكة على حساب ملكة أخرى، والحال أن الإنسان ملكات متكاملة وكفاءات متظافرة، لا ينفي بعضها بعضا.

وقد تجلى هاجس النورسي في نحت معالم الإنسان الجديد من خلال مفهوم الإنسان الكامل وفي هذا قال الإمام: "إن الإنسان على الرغم من أن له استعداداً لبلوغ الكمالات كلها ونيل أنوار الأسماء الحسنى جميعها فإنه يتحرى الحقيقة من خلال ألوف الحجب والبرازخ، إذ اقتداره جزئي، واختياره جزئي، واستعداداته مختلفة ورغباته متفاوتة.

ولأجل هذا تتوسط الحجب والبرازخ لدى انكشاف الحقيقة، وفي شهود الحق، فبعضهم لا يستطيع المرور من البرزخ. وحيث إن القابليات متفاوتة، فقابلية بعضهم لا تكون منشأ لانكشاف بعض أركان الإيمان.

ثم إن ألوان تجليات الأسماء تتنوع، حسب نيل المظاهر، وتصبح متغايرة، فلا يستطيع بعض من حظي بمظهر اسم من الأسماء أن يكون مداراً لتجليه تجلياً كاملاً، فضلاً عن أن تجلي الأسماء تتخذ صوراً مختلفة باعتبار الكلية والجزئية والظلية والأصلية. فيقصر بعض الاستعدادات عن اجتياز الجزئية والخروج من الظل. وقد يغلب اسم من الأسماء - حسب الاستعداد - فينفذُ حكمُه وحدَه، ويكون مهيمناً في ذلك الاستعداد"[16].

علما بأن الإمام استشكل الأمر بداية عندما ذكر أن الكمال الحقيقي لا ينال إلا بانكشاف أركان الإيمان كلها، ولكن تساءل عن تقدم أهل الحقيقة في بعض أركان الإيمان، بينما تخلفوا في بعضها الآخر[17]، حيث مثّل للأمر بمثال لمن وعى وطأة التكليف الإلهي بضرورة تدبر علامات الكون والتبصر برموزه، حتى يحصل الاستخلاف تاما والاصطفاء كاملا؛ فافترض زهرة ذات نقوش وقطرة ذات

حياة عاشقة للقمر ورشحة ذات صفاء متوجهة نحو الشمس، حيث إن لكل منها شعورا، ولكل منها كمالا، وشوقا نحو ذلك الكمال؛ فمثّل الذي لا ينسى الدنيا ويوغل في الماديات على أنه الزهرة، والفيلسوف الدارس في المدارس الحديثة، والمعتقد بالأسباب على أنه القطرة، أما الفقير الذي يعتقد أن كل شيء منه تعالى مباشرة فهو الرشحة[18].

فالذي يريد الكمال وهو زهرة عليه أن يرفع رأسه السارح في محبة نفسه، ويكف نظره المستمتع بمحاسن نفسه، ويحدقه في وجه الشمس، فإن أنجز هذا الشرط وجد كماله، ولكن لن ير الشمس بذاتها ولن يدرك الحقيقة في تجردها[19].

والذي يريد الكمال وهو قطرة عليه ترك ليل الطبيعة والتوجّه إلى شمس الحقيقة، ليعتقد يقينا أن أنوار الليل هذا هي ظلال ضياء شمس النهار. فإن وفى بهذا الشرط وجد كماله، فوجد الشمس المهيبة بديل قمر فقير معتم. ولكنه أيضا مثل صديقه الآخر لن ير الشمس صافية، وإنما يراها وراء ستائر آنسها عقلُه وألفَتْها فلسفَتُه، يراها خلف ما نسجها علمُه وحكمتُه من حُجب، يراها في صبغة أعطتها إياها قابليتُه[20].

وهذا صديقكم الثالث الشبيه بـ (الرشحة) فقير، عديم اللون، يتبخر بسرعة بحرارة الشمس، يدع أنانيته ويمتطي البخارَ فيصعد إلى الجو، يلتهب ما فيه من مادة كثيفة بنار العشق، ينقلب بالضياء نوراً، يمسك بشعاع صادر من تجليات ذلك الضياء ويقترب منه.

فيا مثال الرشحة! ما دمت تؤدي وظيفة المرآة للشمس مباشرة، فكن أينما شئت من المراتب، فيمكنك أن تجد نافذة نظارة صافية تطل منها إلى عين الشمس بعين اليقين، فلا تعاني صعوبة في إسناد الآثار العجيبة للشمس إليها، إذ تستطيع أن تسند إليها أوصافها المهيبة بلا تردد، فلا يمكن أن يمسك يَدك ويكفّك شيء قطعاً عن إسناد الآثار المذهلة لسلطنتها الذاتية إليها. فلا يحيرك ضيق البرازخ ولا قيد القابليات ولا صغر المرايا، ولا يسوقك إلى خلاف الحقيقة شيء من ذلك لأنك صاف وخالص تنظر إليها مباشرة، ولذلك فقد أدركت أن ما يشاهَد في المظاهر ويُرى في المرايا ليس شمساً، وإنما نوع من تجلياتها وضرب من انعكاساتها المتلونة. وإن تلك الانعكاسات إنما هي دلائل وعناوين لها فحسب، ولكن لا يمكنها أن تُظهر آثار هيبتها جميعاً[21].

ففي هذا التمثيل الممتزج بالحقيقة يقرر الإمام النورسي أن الكمال يُسلَك بطرق ثلاثة مختلفة متنوعة، فالمحب لنفسه والفيلسوف والفقير يتباينون في مزايا تلك

الكمالات وفي تفاصيل مرتبة الشهود، إلا أنهم يتفقون في النتيجة، وفي الإذعان للحق، وفي التصديق بالحقيقة.

ومن ثمة بدا مشروع النورسي، مشروع فرد وعى وطأة التكليف الإلهي بضرورة تدبر علامات الكون والتبصر برموزه، حتى يحصل الاستخلاف تاما والاصطفاء مستكملا.

فكأن الإمام النورسي يروم من وراء تلك الكلمات درء تعارض العقل والقلب، درءا كليا، يحرر الفرد من التصدعات التي أحدثها أنصار العقلانية، أو احتكرها متوهمو الامتلاك، ليثبت فساد مسلكهم وانحراف مقصدهم، ومن ثمة ألح النورسي على مقصد العدل وقتل كل مظاهر العنف وهذا حفاظا على الأمن الداخلي، حيث قال:" العدل الإلهي والحقيقة القرآنية تمنع بشدة إلقاء حياة تسعين بريئاً إلى التهلكة أو الإضرار بهم بسبب عشرة بالمائة من الجناة. فإتباعا لهذا الدرس القرآني، نلتزم ديناً بالمحافظة على الأمن والنظام.

فأعداؤنا المستترون في السلطة السابقة الذين اتهمونا بمثل هذه التهم، قد اتخذوا السياسة وسيلة للإلحاد وسعوا لدق إسفين العقائد الفاسدة في أرض الوطن من حيث يدرون أولا يدرون. فظاهر عياناً أن المخلّين بالنظام أو السكون ومخربي الأمن والأمان مادياً ومعنويًا لسنا نحن، بل هم أولئك.المسلم الحقيقي والمؤمن الصادق لا يكون مؤيداً للفوضى والتخريب. والدين يمنع الفتنة والفوضى بشدة، لأن الفوضى لا تعترف بحق من الحقوق، وتقلب سجية الإنسانية وآثار الحضارة إلى سجية الحيوان المتوحش، وفي القرآن الحكيم إشارة لطيفة إلى أن ذلك هو جيش يأجوج ومأجوج في آخر الزمان"[22].

وتحقيق العدل، مقصد دونه مقاصد أخرى، تقضي أن يقام دين الله على الأرض، ويتأسس علمه، يبشر به أولياء الله تعالى من ذوي الحكمة والعلم، بعد ارتفاع أديان الزور وشرائع العنف.

المطلب الثاني: جدل الصعود والنزول/ أنسنة الحقيقة

يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن الجدل الصاعد والجدل النازل ما ذكره نصر حامد أبو زيد في كتابه مفهوم النص، وخشية أن يدخل المرء في مقارنات أو مقاربات بين منهج النورسي ومنهج نصر حامد أبو زيد، كان لزاما أن يُوضّح الأمر؛ حيث إن نصر حامد أبو زيد يتكلم عن منهج السلف الصالح المغاير لمنهجه، من حيث أولويات الحديث، فمنهج السلف حسب رأيه يعطي الأولوية للحديث عن الله ثم يلي ذلك الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم بعد ذلك الحديث عن الواقع تحت عناوين أسباب النزول، والمكي و المدني والناسخ والمنسوخ، ومثل هذا التعامل وإن

اكتملت له أدوات البحث العلمي هو بمثابة تفاعل نازل، في حين أن منهج أبو زيد بمثابة تفاعل صاعد؛ إذ إن المنهج الأول يبدأ من المطلق والمثالي -على حد تعبير نصر حامد- ليهبط إلى الحسي، أما المنهج الثاني (منهج أبو زيد) يبدأ من الحسي والعيني صعودا إلى محاولة الكشف عن الخفي[23].

ثم يكشف نصر حامد عيوب المنهج الأول، والذي يعتمد حسب قوله على التأمل وبذلك يكون عرضة للانغماس في الأقاويل الخطابية ويتحول إلى وعظ وإرشاد، وهنا يلتقي نصر حامد مع أركون[24] إن لم نقل أنه –أي نصر حامد- أخذ الفكرة من أركون.

أما العيب الآخر كما ذكره نصر حامد هو الإجابات الجاهزة والانسياق في دوامة التشويش الأيديولوجي، حيث يبدو الباحث -في إطار المنهج الأول- وكأنه يكتشف جديدا وهو في الواقع يمارس دور المشعوذ[25].

ثم يعرض أبو زيد ايجابيات منهجه الذي يبدأ بالواقع الذي هو مفهوم واسع يشمل مختلف الأبنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ويشمل الملتقى الأول للنص ومبلغه وهو الرسول –صلى الله عليه وسلم- كما يشمل المخاطَبين بالنص، فإذا كان النص أداة اتصال يقوم بوظيفة إعلامية رسالية، فإننا لا يمكن قدر طبيعة الرسالة التي يتضمنها النص إلا بتحليل معطياته اللغوية في ضوء الواقع الذي تَشَكّل النص من خلاله، وقولنا إن كل نص رسالة يؤكد أن القرآن والحديث النبوي نصوص يمكن أن نطبق عليها مناهج تحليل النصوص، وذلك ما دام ثمة اتفاق على أنهما رسالة ، ومعنى ذلك- يضيف نصر حامد- أن تطبيق نهج تحليل النصوص اللغوية الأدبية على النصوص الدينية لا يفرض على هذه النصوص نهجا لا يتلاءم مع طبيعتها لأن المنهج هنا نابع من طبيعة المادة ومتلائم مع الموضوع[26].

من خلال هذا الطرح نستنتج أن الاتصال بالحقيقة عند نصر حامد أبو زيد ، هو اتصال توسيطي لا اتصال مباشر، كيف لا وقد جعل بينه وبين حقائق النص القرآني سلطة الواقع(رجالا وأعمالا وأقوالا)، برزخا فاصلا وحكما مشرعا، رغم أنه أبدل الأثر المحسوس بأثر مجرد، هو العقل ككفاءة نظرية، لا تصح الحقائق إلا إذا استقامت عقليا واستتمت نظريا.

ولكن رغم هذا بقي المعنى القرآني مأسورا بجوارح الإنسان، وهو ما جعل النورسي يجتاز هذه التأويلات الرسومية قاصدا غور اللفظ لا ظاهره، عمق الحقائق لا سطوحها.

وقد بدا هذا الاجتياز بتبديل النسق المألوف بأنساق تحدثها طبيعة النص القرآني، نصا جامعا وعالما رمزيا مثخنا؛ فالنصّ إذا ظهر لك وهو يتحدّث عن الطبيعة مثلاً، فهو يتحدّث في حقيقة الأمر عن العقائد وعلم النفس وعن جميع المعارف الأخرى، من خلال اقترانه بألفاظ النصوص الأخرى التي بدورها تكشف لك المزيد من أسرار النصّ، فالقرآن في فكر النورسي هو كتاب الإنسان أو كتاب قد نزل لأجل الإنسان[27]، ففي هذا الجانب فإن القراءة قراءة الإنسان.

وهذا ما غير نظام حركة السعي إلى الحقيقة التي لم تعد ودائع منقبية، متى طُلبت كانت النماذج جاهزة للتطبيق، بل صارت عند النورسي إمكانا يبنى، واحتمالا يستنتج، ومقصدا يستخرج، ومن ثمة جاز الحديث عن صناع الحقيقة من جهة كونهم مجتهدين لا مقلدين، حاولوا استخراج القيمة من زمانهم لا من زمان غيرهم، أحبوها بقلوبهم لا بقلوب غيرهم، جعلوا الحقيقة وجوها، والمعنى إمكانات، تنفعل بواقعهم لا صعودا ولكن نزولا ، لتغدو كيانا مؤنسنا يحويه قلب الإنسان، كما تصير حاصلا ثقافيا من إبداعاته، وبالتالي تعود للحقيقة مع النورسي إرادتها التي سلبتها إياها بعض مؤسسات الضبط العقلي المجرد، وفي هذا قال الإمام النورسي:" أخذتني الأقدار نفيا من مدينة إلى أخرى .. وفي هذه الأثناء تولدت من صميم قلبي معاني جليلة، نابعة من فيوضات القرآن الكريم.. أمليتها على من حولي من الأشخاص، تلك الرسائل التي أطلقت عليها (رسائل النور)، إنها انبعثت حقا من نور القرآن الكريم. لذا نبع هذا الاسم من صميم وجداني، فأنا على قناعة تامة ويقين جازم بأن هذه الرسائل ليست مما مضغته أفكاري، وإنما إلهام إلهي أفاضه اللّٰه سبحانه على قلبي من نور القرآن الكريم، فباركت كل من استنسخها[28].

إن انخراط النورسي في هذا الجدل التأويلي إنما يعكس إرادة ممكنة تمحي بها حواجز التوسيط العقلي المجرد من جهة كونها، أدلة قاصرة وعلامات شكلية، ليحل محلها انفتاح قلبي على معاني القرآن الكريم، تكون شاهدا على إرادة صلبة لا حواجز ولا فروق تعيقها.

أما إذا نظرنا إلى الاجتياز الذي قام به النورسي من جهة كمالات الوجود فإن كمال الوجود مع الحياة، بل إن الوجود الحقيقي للوجود كائن مع الحياة، فالحياة نور الوجود، والشعور ضياء الحياة.. والحياة رأس كل شيء وأساسه.. وهي التي تجعل كل شيء ملكاً لكل كائن حيّ، فتجعل الشئ الحيّ الواحد بحكم المالك لجميع الأشياء.. فبالحياة يتمكن الشيء الحيّ أن يقول: ((إن هذه الأشياء ملكي، والدنيا

مسكني، والكائنات كلها ملك أعطانيه مالكي)).. وكما أن الضوء سبب لرؤية الأجسام وسبب لظهور الألوان - على قول - كذلك الحياة هي كشّافة للموجودات، وسبب لظهورها، وسبب لتحقق النوعيات.. وهي التي تجعل جزء الجزئي بحكم الكلّ والكلّي، وسبب لحصر الأشياء الكلية في الجزء، وسبب لجميع كمالات الوجود كإشراكها وتوحيدها الأشياء الوفيرة، وجعلها مداراً لوحدة واحدة ومظهراً لروح واحدة.. حتى أن الحياة نوع من تجلّي الوحدة في طبقات الكثرة من المخلوقات، فهي مرآة للأحدية في الكثرة[29].

إنها كمالات الوجود لا وحدة الوجود التي تصبح الكائنات بها مجرد خيالات وأوهام كما يدعي مريدو هذه الطريقة، إنه الشعور بالحياة، إنه الاستخلاف الحقيقي الذي يجعل الإنسان يعيش بكل طاقته، لا من خلال عقيدة ضيقة في حياة، إنما من خلال عقيدة منفتحة على حياة سرمدية.

خاتمة

وفي ختام هذا البحث نوجز أهم النتائج العامة له.

1. تبين لنا من خلال البحث أن النورسي لا يحد العقل بالكفاءات التجريدية المنطقية، وإنما بالكفاءات التقويمية العملية التي تقتضي مد العقل بمبادئ إدراكية تمتح من ضياء القلب.

2. من مقتضيات العمل الإيجابي عند الإمام النورسي نفع المقصد ونجاعة وسيلته.

3. يريد النورسي أن يجعل العمل تكليفا وحدث تشريف، عملا منذورا لله تعالى لا ينقطع بذهاب صاحبه، ولا يتحول إلى السلبية بمكر الناس، وقد تجلى هذا في فكرة الكمال.

4. بعد أن كان مسعى الحقيقة صعدا، غدا مع الإمام النورسي نزلا أبدل من خلاله طريق السعي إلى الحقيقة، فكان خطابه عنها من حيث هي كيان مؤنسن يحويه قلب المريد إذا أراد، لأن الحقيقة كما هي قيمة تعقل فهي كذلك هبة تحدس.

الهوامش

1-بديع الزمان النورسي، الكلمات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص125.

2- المصدرنفسه، ص125.

3-بديع الزمان النورسي، المكتوبات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار الكتب المصرية، ط3، 2001م، ص572

4-المصدر نفسه، ص571.

5-المصدر نفسه، ص572.

6-المصدر نفسه، ص503.

7-المصدر نفسه، ص503.

8-النورسي: الكلمات، ص105

9-بديع الزمان النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر، القاهرة، ط3، 2002م، ص23.

10-بديع الزمان النورسي، سيرة ذاتية، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر، القاهرة، ط3، 2002م، ص469.

11-المصدر نفسه، ص469.

12-المصدر نفسه، ص471.

13-النورسي، المكتوبات، ص77.

14-المصدر نفسه، ص347.

15- المصدر نفسه، ص347.

16-النورسي، الكلمات، ص421.

17-المصدر نفسه، ص421.

18-المصدر نفسه، ص424-425.

19-النورسي، الكلمات، ص425.

20-المصدر نفسه، ص426.

21-المصدر نفسه، ص426-427.

22-النورسي، كليات رسائل النور، ص16.

23-نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 2000م، ص26.

24-محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، تر: هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993م، ص 58.

25-نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص26.

26-المصدر نفسه، ص 26-27.

27-النورسي، الكلمات، ص 466.

28-بديع الزمان النورسي، الشعاعات، تر: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط2، 1414هـ، 1993م، ص 542.

29-النورسي، الكلمات، ص466.